من مذكرات ابن أبي ربيعة

الخفيفة المؤمنة

للأستاذ محمود محمد شاكر

« قال عمر بن أبي ربيعة » ...

فبادرت أعدو يكادُ ينشقُّ عليَّ جِلْدي من شدَّة العَدْو ، فقد أكلتْ مني السنُّ وتمرَّقتْني أنيابُ الكِبَر؛ فاجاوزت رَوْضة قصر أمير المؤمنين حتى تقطعت أنفاسي من الجهد ، وتلقاني الآذِنُ : ما عداكَ يا أبا الخطاب ؟ فقلت : إيذَنْ لي على أمير المؤمنين [هو الوليد بن عبد الملك] ، فقد نزل بنا ما لا ردَّ له ، وتبعتُه ... ووالله إنَّ فرائصي لتُرْعدُ وكأني محمومٌ قد جرت عليه هبَّةُ ريح باردة ... وغاب الآذنُ : فما هو إلا أمير المؤمنين يستقبلني كالفزِع ، وقد خرج إليَّ فقال : أيُّ شيء هو يا ابن أبي ربيعة ؟

قلت : والله ما أدري يا أمير المؤمنين ، فما كان إلا ومحمد بن عروة [بن الزبير] تحت سنابكها ، فما زالت تضربه بقوائمها ، وما أدركناه إلا وقد تهشم وجهه وتحطمت أضلاعه ! ! ...

وكأنما فارقتني الروح ، فما أشعر إلا وأمير المؤمنين قائم على رأسي ينضح الماء على وجهي ، وقد قُرِّبتْ إلى بِجْمَرَةٌ يسطع منها ريح المندَل الرطيب ، فلما أفقتُ ورجعتْ إليَّ رُوحي سألني أمير المؤمنين أن أقصَّ عليه الخبرَ ...

قلت : خرجنا أنا ومحمد بن عروة وهشامٌ أخوه نريد منزلنا من قصر أمير المؤمنين ، نرجو أن نتخفَّف من بعض ثيابنا ، فقد أنهكنا الحرُّ ... فنظر محمد إلى مرآةٍ من فضَّة مُجلوَّةٍ معلقةٍ في البيت ، ثم قال : أتذكُر يا أبا الخطاب حَجَّتنا تلك ؟ قلت : أيَّتهنَّ ؟ فقد أكثرتَ وعمَّك الحجَّ ، فقال : سرعان ما نسي الشيخ ، لقد كبرت والله يا أبا الخطاب ! وقد حدثني أبي بالذي كان منك ، فقد كنت تساره وتحادثه ، فلم تلبث أن سألته : وأين زينُ المواكب[1] يا أبا عبدالله ؟ فقال لك : أما مَك ، فأردت تركضُ راحلتك تطلُبني ، فقال لك : يا أبا الخطاب ، أوَ لسنا أكفاءً كراماً لمحادثتك ، ونحن أولَى أن تسايرنا ، فقلت له : بَلَى ، بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله ! ولكني مُغرًى بهذا الجمال أتبعهُ حيث كان ، ثم عدلتَ براحلتك وضربتها وأقبلتَ إليَّ ، وجمل أبي يتعجب منك ويَضحك ، وقد استنار وجهه ... إحدى سوآتك هي والله يا أبا الخطاب ...

فضحكت لقوله وتناقلنا الحديث وإذا هو ساكنٌ ساجٍ كأنما غشيَته غاشية همٍّ ، فقلت : ما بك يا محمد ؟ فزفر والله يا أمير المؤمنين زفرة كأنما انشقت لها كبدي ، ثم قال : أرأيت هذا الجمال الذي تبعته يا أبا الخطاب ، يوشك أن يكون طعاماً يلحسه تراب القبر فما ترى إلا عظما أغبر من جمجمة تقذف الرعب من محجريها ... لقد روَّعني والله يا أمير المؤمنين حتى تطيَّرتُ وما بيَ الطِّيَرة ؛ فأردت أن أصرفه عن بعض وهمه أن يكون السيف قد أوقد عليه حرَّه فخيَّره . فانطلقنا جميعاً [يعني هو وهشام ومحمد] إلى سطح البيت نستظل بظُلته ونستروح النسمات وأقبلنا نضحك ونعبث ونلهو من بعض اللهو ، وإذا طائر يحوم يصفق بجناحيه ثم رَنق فكسرهما من الإعياء ثم سقط ثم درج ثم اضطرب قد كاد يقتله الظمأ ، فجرى إليه « محمد » ليأخذه فيبُل ظمأه ، فخفَّ الطائر فهوى إليه محمد ليدركه ، فما نرى والله محمداً ... قد اختطفه أجله فجذبه فهوى به إلى اصطبل الدواب ، فوقع بينها فنهرها فهيج ، وإذا « زين المواكب » تحت سنابكها تضربه ، فما أدركناه والله يا أمير المؤمنين إلا جثة قد ذهب رأسها ، وما نرى إلا الدم ... رحمة الله عليه ، لقد ...

قال أمير المؤمنين : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فكيف نحتال لهذا الأمر يا ابن أبي ربيعة ؟ قلت :

(١) كان يسمى محمد بن عروة زين المواكب لجماله وبهائه ...

فيم الحيلة يا أمير المؤمنين وقد ذهب القدر بما يُحتال له ! فقال : أههنا أنت يا عمر ، نحت وسار الركب ، هذا أبوه أبو عبد الله شيخ كبير يوشك أن يصاب فى نفسه ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا مصابه فى ابنه ، فما مصابه فى نفسه إلا أن يكون الخبر إذ يبلغه ؟ وسأحتال له . قال أمير المؤمنين : مهلاً يا عمر ، لقد علمت أن أبا عبد الله [عروة بن الزبير بن العوام] كان قد اشتكى رجله وما زال يشتكى ، فبينا نحن الساعة جلوس إذ دخل علينا « أبو الحكم » الطبيب النصرانى ، فاستأذنت أبا عبد الله أن يدَع « أبا الحكم » حتى يرى علة رجله ، فما راعنا إلا « أبو الحكم » يقول إنها الأكلة ، وإنها قد ارتفعت تريد الركبة ، وإنها إذا بلغت الركبة أفسدت عليه جسده كله فقتلته ، فما بُدٌّ من أن تقطع رجله الساعة خشية أن تدب الأكلة إلى حيث لا ينفع القطع ولا البتر

فوجمتُ والله لهذا البلاء ، وقد اختلف به القدَر على شيخ مثل أبى عبد الله فى إدبار من العمر ، وأخذ أمير المؤمنين بيدى وقام . فدخلنا مجلس الخلافة وإذا وجوه الناس قد جلسوا إلى عُروة أبى عبد الله يواسونه ويصبّرونه ويذكرونه بقدَر الله خيره وشرّه ؛ وإذا فيهم سليمان بن عبد الملك أخو أمير المؤمنين ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وقد حضره ولده هشام فأرَمّ قد انتُسف لونه من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه . وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عروة ؛ فتفرق الناس إلى مجالسهم ، وإذا عُروة كأنْ ليس به شىء ، يرفّ وجهه كأنه فِلْقة قمر وهو يضحك ويقول : لقد كرهت يا أمير المؤمنين أن يقطعوا منى عضواً يحط عنى بعض ذنوبى ، فقد حُدّثنا أن أبا بكر قال : يارسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية « ليسَ بِأَمانِيّكُمْ ولا أَمانِيّ أهلِ الكتاب مَنْ يَعمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ » ، فكل سوء عملناه جُزِينا به ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا بكر ؛ ألستَ تمرَضُ ؟ ألستَ تنصَبُ ؟ ألست تحزَنُ ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ قال : بلى يارسول الله . قال صلى الله عليه وسلم : فهو ما تُجزَون به ، فإن ذاك بذاك . لَوَدِدْت يا أمير المؤمنين أنها بقيتْ بدائها فهى كفّارةٌ تحتُّ الذّنوبَ

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك ، غفر الله لك ، وما أعجبُ لصبرك ، فأُمك أسماء بنت أبى بكر الصديق « ذات النّطاقين » وأبوك حَوارىُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته الزبير ابن العوام ، فرضى الله عنك وأرضاك يا أبا عبد الله

فما كدنا حتى أقبل أبو الحكم ، وهو شيخ نصرانىٌّ طويل فارعٌ مَشبوحُ العظام ، قد تخدّد لحمه ، أحمرُ أزْهرُ أصلع الرأس إلا شعرات بيضاً قد بقيت له ، كثُّ اللحية طويلها ، لو ضربتها الريح لطارت به ؛ ودخل أبو الحكم وراء لحيته وهى تسعى بين يديه ، حتى وقف على عروة بن الزبير فقال : لا بدّ مما ليس منه بُدٌّ يا أبا عبد الله ، وإنى والله لأرحمك وأخشى أن يبلُغ منك الجهد ، فما أرى لك إلا أن نسقيك الخمر حتى لا تجد بها ألم القطع . قال عروة : أبعدك الله من شيخ ، وبئس والله ما رأيت ! إنا والله ما نحبُّ أن يرانا الله بحيث نستعين بحرامه على ما نرجو من عافيته ! قال أبو الحكم : فنسقيك المُرْقِدَ ، يا أبا عبد الله ! قال عروة : ما أحبُّ أن أسلَبَ عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألَمَ ذلك فأحتسبه عند الله

قال أبو الحكم : وقاك الله يا أبا عبد الله ! لقد ألنت منا قلوباً كانت قاسية ؛ ثم التفت (أبو الحكم) إلى رجال سود غِلاظ شداد قد وقفوا ناحية فقال : أقبلوا ، فأقبلوا ... فأخذتهم عينُ عروة فأنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ فقال أبو الحكم : يمسكونك ، فإن الألم ربما غلب معه الصبر ؛ قال عروة : أما تُقلع أيها الشيخ عن باطلك ، انصرفوا يرحمكم الله ، وإنى لأرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى ، ولا والله ما يسعنى أن هذا الحائط وقانى أذاها فاحتمل عنى ألمها . أقبل يا أبا الحكم ، وخذ فيما جئتَ له « ربّنا إننا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِى للايمانِ أنْ آمِنوا بِرَبّكم فآمنا ، رَبنا فاغفِرْ لنا ذُنُوبَنا وكفِّرْ عنا سيئاتِنا وتوفّنا مع الأبرار . ربّنا وآتِنا ما وَعدْتَنا على رُسُلِكَ ولا تخزِنا يومَ القيامةِ إنك لا تخلفُ الميعاد »

فرأيت أبا الحكم وقد برق وجهه وتوقد كأنما أسلم بعد كفر ، ثم نشر درجاً كان فى يده وأخرج منشاراً دقيقاً طويلاً صقيلاً يضحك فيه الشعاع ووُضع الطست ومَد أبو عبد الله رجْله على الطست وهو يقول : باسم الله والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله « ربنا ولا تحمّلْنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا » . تقدم يا أبا الحكم فقد احتسبتها لله

فما بقى والله أحدٌ فى المجلس إلا استدارَ ودفَنَ وجههُ فى كفيه ، وبكى القوم فملأ نشيجهم ، وإن عروةَ لساكن قارٌّ

ينظر إلى ما يرادُ به ، وكأنما ملكٌ قد جاء إلى الأرض يستقبل آلامها بروح من السماء . ووضع أبو الحكم منشاره فى اللحم إلى العظم، وإن عروة لصائم يومه ذاك، فما تضور وجهه ولا تقبض، والمنشار يأكل فى عظمه الحى ، وما يزيد على أن يهلل ويكبر ويسبح الله ، وكأن الدار والله قد أضاء جوها كأنه شعاع ينسكب من تهليله وتكبيره ؛ ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت وقد غلى فيها على النار ، ودنوا فما هو إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منها وتفجر مثل الينبوع ، فأخذها أبو الحكم يغمسها فى الزيت فيسمع نشيشها فيه حتى حسم الدم . وإذا عروة قد غشى عليه ، وإذا وجهه قد صفر من الدم ، وقد تجدّ فنضح وجهُه بالعرق، ولكنه بقى مشرقاً نيراً يرفُّ كأنه عرارة تحت الندى . قال أبو الحكم : مارأيت كاليوم يا أمير المؤمنين إنه الرجل ، وإنها الحقيقة المؤمنة ، وإن إيمانه ليحوطه ويثبته ويسكنه وينفض عنه الجزع ، ثم التفت إلى عروة يقول : جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله ، لأنت والله تمثال الصبر فى إهاب رجل

وما لبثنا ، حتى إذا أفاق أبو عبد الله جلس يقول : لا إله إلا الله والحمد لله، ويمسح عن وجهه النومَ والعرق بكفيه ، وينظر فيرى قدمه فى يد رجل يهم أن يخرج بها فيناديه : على رسلك أيها الرجل ، أرنى ما تحمل ؛ فيأخذ قدمه فى يده فيرنو إليها وقد سكن وحرّك شفتيه ، ثم يقلبها فى يده ثم يقول لها : أما والذى حملنى عليك ، لقد علمتِ أنى ما مشيت بك إلى حرام ولا معصية، اللهم هذه نعمة أنعمت بها علىّ ثم سلبتنيها أحتسبُها عندك راضياً مطمئناً إنك أنت الغفور الرحيم ، خذها أيها الرجل ؛ ثم أضاء وجهه بالإيمان والصبر عن مثل الدرة فى شعاع الشمس ... ...

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك يا أبا عبد الله ، وإن فى الناس لمن هو أعظم بلاء منك ، يا عمر [يريد عمر بن عبد العزيز] ، فاد الرجل من أخوالى [يعنى من بنى عَبْس] فيقبل عمر ومعه رجلٌ ضريرٌ محطومُ الوجهِ لا تُرى إلاّ دمامته ، فيقول لهُ أمير المؤمنين : حدّثْ أبا عبد الله بخبرك يا أبا معصمة ، فيلتفت الرجل إلى عُرْوة ويُقبل عليه فيقول : أبنَ الزُّبير ، قد والله لقيتَ البلاء ؛ يا فقيه المدينة وابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنى والله محدثك عنى بخبرى عسى أن يرفع عنك : فقد بتُّ ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم عَبسيًّا فى الأرض يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيلٌ جارفٌ كأنه الطوفان ، يتقاذف بين يديه موجاً كالجبال ، فذهب بما كان لى من أهل ومال وولد إلا صبياً مولوداً وبعيراً نضواً ضعيفاً . فندَّ البعيرُ يوماً والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير أطلبه ، فما جاوزت ابنى قليلاً إلا ورأسُ الذئب فى بطنه قد بعجها بأنيابه العُصل فاستل أحشاءه ، وإن الصغير ليصرخ ، ويركض برجليه الأرض ، فكدت والله أسوخ فى الأرض مما رأيت ، ولكنى ذكرت الله واستعنته واحتسبتُ الصغير فتركته لقدر الله واتبعت البعير ، فهممت آخذ بذنبه وقد أدركته ، فرمحنى رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينىّ ، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ذا بصر ، وإنى أحمد الله إليك ، يا أبا عبد الله ؛ فاصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . قال عُروة : لقد أفضل الله عليك يا أبا معصمة وإنى لأرجو لك الجنة

قال عمر بن أبى ربيعة : وألاح إلىّ أمير المؤمنين أن أقبل ، فدنوت إليه فأسر إلىّ : إن أردت الحيلة فقد أمكنتك ، فاذهب إلى أبى عبد الله فانعَ إليه ولده « زين الواكب » ، قلت : هو والله الرأى يا أمير المؤمنين ، ثم مضيت إلى عروة وقد غلبتنى عيناى بالبكاء

فلما قاربته قلت: عزاءك يا أبا عبد الله ؛ قال عروة : فيم تعزينى يا أبا الخطاب ؟ إن كنت تعزينى برجلى فقد احتسبتها لله ، قلت : رضى الله عنك ، بأبى أنت وأمى، بل أعزّيك « بزين الواكب » ، فدهش وتلفّت ولم ير إلا هشاماً ولده ، فرأيت فى وجهه المعرفة ثم هدأ فقال : ما لَهُ يا أبا الخطاب ؟ فجلست إليه وتحلّق الناس حوالينا وتكنّفونا، وأخذت أحدّثه بشأنه ، ووالله ما يزيد على أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ، فلما فرغت من خبرى ما زاد على أن قال :

وكنتُ إذا الأيامُ أحدثنَ هالكا أقول شوًى ما لم يُصبن حميمى

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تندّت عيناه ثم قال : اللهم إنه كان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد فيما أخذت وأبقيت ؛ اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذت ابناً وتركت أبناء ، وايمُ الله لئن كنت أخذت لقد أبقيتَ ، ولئن ابتليت لطالما عافيت ، سبحانك ربنا وإليك المصير . قوموا إلى جهاز أخيكم يرحمكم الله، وانظروا لا تكون عليه نائحة ولا مُعْوِلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن النياحة ، ومُرُوهنّ بالصبر للصدمة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على امرأة تبكى